ياسين بن علي

مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



www.azeytouna.org

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ .

(الأنبياء)

المحتويات

مقدّمة ٦
تمهيد ٧
فكرة التّسامح عند الغرب ٩
رأي الإسلام في مصطلح التّسامح ١٣
تحقيق واقع قبول الآخر ١٥
تحقيق معنى قبول الآخر ١٨
قبول من خالفك في العرق واللون ٢٠
قبول من خالفك في الجنس ٢٤
قبول من خالفك في الفكر ٣٠
قبول من خالفك في الحالة الاجتماعية ٣٨
احترام الخصوصية الثقافية ٤١
خاصية التسامح الإسلامي ٤٣
فرية معاداة السامية ٤٥
الجهاد في الإسلام ٥١
من يكره من ؟ ٥٦
أكذوبة التسامح الغربي ٦٣
خاتمة ٦٧
القرآن أقوى من الغرب ٦٧

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وخاتم النّبيين وعلى آله وصحبه والتّابعين بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإنّ هذا الكتيب المتعلّق بموضوع التّسامح بين الإسلام والغرب هو نسخة جديدة، مزيدة ومنقحة، من بحث سبق لي نشره (سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) في شكل كتيب عنوانه "سماحة الإسلام ورحمته بالعالمين".

وقد كتب الله سبحانه وتعالى القبول لهذا البحث المتواضع، فنفدت طبعة الكتيب الأولى، ونشر في مجموعة من المجلات والمنتديات، وألقي في بعض المحاضرات والندوات، مما شحذ همّتي وجدّد عزيمتي فعزمت بعد التّوكل على الله سبحانه على إعادة طباعته من جديد.

وقد ارتأيت بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات والإضافات أن أصدره بعنوان جديد هو "مفهوم التّسامح بين الإسلام والغرب"؛ لأنّه تضمّن دراسة مفهوم التّسامح دراسة شبه مقارنة بين الإسلام والغرب.

أسأل الله تعالى أن يبارك في هذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

تمهيد

إنّ الحضارة الغربية الرأسمالية الديمقراطية التي سادت العالم بأكمله، وملكت الدنيا واكتسحت بسطوتها الكون، فعنت لها وجوه ونكست رؤوس، حضارة مولعة بتزوير الحقائق، ومغرمة بإخفاء الوقائع، فلا يعنيها طلب الصدق، ولا يشغلها إحقاق الحقّ وإبطال الباطل بقدر ما يعنيها ويشغلها مقدار الدماء التي مُصّت، وكمية الثروات التي نهبت والمنفعة التي حصّلت.

كم يلذّ لحماة هذه الحضارة، وكم يطيب لهم، مدح حضارتهم بكلّ صفة حميدة، ومَكَرمة نبيلة، وشَميلة محمودة وخَلّة حسنة، وكم يكره هؤلاء أن تنتقد ثقافتهم، وأن تردّ حضارتهم، وأن تجتنب طريقتهم في العيش؛ إنّه سلوك من تعالى وتكبّر، وصنيع من طغى وتجبّر.

إنّ حماة هذه الحضارة الرأسمالية – حاشا القليل منهم – أناس يحترفون بمهارة وإبداع ما يسمونه في ثقافتهم "الإسقاط"، وهو – كما عرّفوه – "عملية دفاعية لا شعورية يعزو فيها الفرد [أو الجماعة] دوافعه وأفكاره وأفعاله المشحونة بالخوف أو غير المقبولة منه إلى الغير هربا من الاعتراف بها أو تخفيضا لما يشعر به من الإدانة الذاتية ومن الألم أو التوتر النفسي، ويعدّ الإسقاط في هذه الحالة من أساليب التبرير والدفاع عن النفس."[١] وبعبارة أخرى فإنّ الإسقاط هو ما

---

[١] ينظر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، للدكتور زكي بدوي، ص٣٣١

عبّر عنه العرب في أمثالهم القديمة بقولهم: "رَمَتْنِي بِدَائِها وانْسَلَّتْ "، وهو مثل يضرب لمن يُعَيِّر صاحبه بعيبٍ هو فيه.

ومن ذلك أن يعيّر حماة الحضارة الغربية الإسلام بالتعصّب وعدم قبول الآخر، مع أنّ الحقيقة على النّقيض مما يدّعون، وهو ما سنثبته في هذا المقام، ونسلّط الضوء عليه ونجلّيه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

فكرة التّسامح عند الغرب

ظهرت فكرة التّسامح عند الغرب في القرون الوسطى أو ما يسمى بعصر النهضة والإصلاح في فترة تميزت بسلطة مطلقة للكنيسة على الحياة والدولة والمجتمع. ثمّ تركزت الفكرة كقيمة أخلاقية ذات دلالات سياسية ومجتمعية في القرن ١٨م أو ما يعرف بعصر التنوير. وممن ساهم في إبراز هذه الفكرة من المفكرين في تلك الحقبة من الزمن نذكر: آكونتيوس Acontius (ت١٥٦٦م؟)، وإرازموس Erasmus (ت١٥٣٦م)، وجان بودان Bodin (ت١٥٩٦م)، وبلتازار هوبمايرHübmaier (ت١٥٢٨م)، وجون آلتسيوس Althusius (ت١٦٣٨م)، وجون لوك John Locke (ت١٧٠٤م) صاحب الرسالة الشهيرة عن التسامح " A Letter concerning Toleration "، وفولتير Voltaire (ت ١٧٧٨م) صاحب العمل الشهير: “TRAITE SUR LA TOLERANCE” .

فقد رأى جمع من مفكري أوروبا أنّ الحلّ للصراع بين مختلف التّيارات الدينية النّصرانية يكمن في التّسامح، فكتب المفكرون في معالجة الأمر، وأصدر بعض الحكّام "مراسيم سياسة التسامح"، كمرسوم "نانت" في عام ١٥٩٨م الذي منح به ملك فرنسا هنري الرابع رعاياه الكالفينيين الحقّ في الممارسة الحرّة لديانتهم.
ثمّ تطوّر فكر التّسامح في الغرب ليشمل كلّ الناس بغضّ النظر عن دينهم، ففي سنة ١٧٤٠م كتب فريدريك الكبير ملك فرنسا ردا على سؤال الإدارة الحكومية حول هل بوسع الكاثوليكي أن يكتسب الحقوق المدنية: "إنّ كل الأديان جيّدة

بالتساوي، وحسب الناس الذين يعلنون إيمانهم بها أن يكونوا صادقين. ولو أراد الأتراك والوثنيون أن يجيئوا إلينا ويقطنوا في بلدنا لبنينا لهم المساجد والمعابد. فكل امرئ في مملكتي حرّ في أن يؤمن بما يريد وحسبه أن يكون صادقا".

وهكذا اعترفت بريطانيا رسميا بالتّسامح المذهبي تجاه الكاثوليك في سنة ١٨٢٩م، ثم تجاه اليهود سنة ١٨٤٢م، والملحدين سنة ١٨٨٨م.

وقد شهدت فكرة التسامح عند الغرب تطورا في مدلولاتها عبر السنين مواكبة لتطور الفكر الغربي نفسه عن الحياة، فخرجت بذلك من طور المحلية أي التذسامح بين أفراد الشعب الواحد إلى طور العالمية أي التّسامح بين البشر جميعا، ومرّت "من مرحلة التنازل إلى مرحلة الاعتراف بالحقّ ثمّ إلى احترام هذا الحقّ".[٢] وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم في التصور النظري الغربي تدلّ على قيمة ذات مضمون أخلاقي، وثقافي، وسياسي، ومجتمعي يشمل كل جوانب الحياة، وأضحت ركيزة من ركائز المجتمعات، وأسا من الأسس المنظّمة للعلاقات بين البشر بصفتهم الفردية أو الجماعية.

وأما من ناحية المفهوم، فقد عرّف التسامح بتعريفات عدة تخضع لزاوية نظر المعرّف، وفلسفته، واهتمامه المعرفي، إلا أنّ تعدّد التّعريفات لم يمسّ من جوهر الفكرة نفسها من حيث هي "قبول اختلاف الآخرين، سواء في الدين أم العرق

---

[٢] ينظر: ندوة حول "التسامح بين المفاهيم والواقع"، المجلة العربية لحقوق الإنسان، ص ٤٩- ٦٢ العدد ٢ سنة ١٩٩٥م.

أم السياسة، أو عدم منع الآخرين من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلي عن آخريتهم".

ومن تعريفات التسامح ما يلي:

- "موقف يتجلّى في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلّق باختلافات السلوك والرأي دون الموافقة عليها. ويرتبط التسامح بسياسات الحرية في ميدان الرقابة الاجتماعية حيث يسمح بالتنوع الفكري والعقائدي على أنه يختلف عن التشجيع الفعال للتباين والتنوع..".[٣]
- "عملية التسامح هي السماح بما هو في جملته غير مقبول. وتحديدا السماح بآراء دينية وطرق تعبد في دولة ما رغم اختلافها أو تناقضها مع ما هو قائم الذات في تلك الدولة على أسس كنسية أو عقدية معينة. وذلك بناء على التحرر من التعصب والتشدد في الحكم على آراء أو عقيدة الآخرين...".[٤]
- التسامح "موقف يتجلى في قبول كيفية تفكير أو عمل عند الآخر تختلف عما نتبناه نحن".[٥]
- التسامح هو "موقف فكري أو قاعدة سلوكية يتجلى في ترك الحرية لكل أحد من أجل التعبير عن أرائه حتى وإن لم نشاطره الرأي فيها".[٦]

---

[٣] معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د زكي بدوي، ص٤٦٢.

[٤] Brainy dictionary at: www.brainydictionary.com

[٥] Dictionnaire Robert

[٦] Dictionnaire Lalande

- التسامح يعني "احترام وتقدير وقبول التنوع الثري لثقافات عالمنا، ومختلف أنماطنا التعبيرية، وطرق تحقيق كينونتنا الإنسانية. وهو ما يتدعم بالمعرفة، والانفتاح، والتواصل، وبحرية التفكير والضمير والتدين. إنّ التسامح تناسق في اختلاف. وهو ليس بواجب أخلاقي فقط، بل هو أيضا مطلب سياسي وحقوقي. إنّ التسامح هو الفضيلة التي تجعل من السلام ممكنا، وتسهم بذلك في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب. ولا يعتبر التسامح مجرد إقرار، ولا مجرد تنازل أو تجاوز بل هو فوق ذلك موقف فعال مدعوم بالاعتراف بالحقوق العالمية للإنسان وحريات الآخرين الأساسية. ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستخدم لتبرير الإخلال بهذه القيم الأساسية. وعلى الفرد والجماعات والدول أن تطبق التسامح. إنّ التسامح يعني تحمّل مسؤولية المصادقة على حقوق الإنسان، والتعددية (ومن ضمنها التعددية الثقافية)، والديمقراطية وسيادة القانون. وهو يتضمن أيضا رفض الدغمائية، والمطلقية... إنّ التسامح يعني أن نقبل بأن البشر من طبيعتها أن تختلف في المظهر، والحالة، والكلام، والسلوك والقيم. ويعني أيضا أنّ للبشر الحقّ في أن تعيش بسلام وأن تكون كما هي...".[٧]

[٧] Declaration of Principles on Tolerance. Proclaimed and signed by the Member States of UNESCO on ١٦ November ١٩٩٥. Article١.

رأي الإسلام في مصطلح التّسامح

منهج الإسلام في التعامل مع المصطلحات الأجنبية - إذا سلّمنا بأجنبية مصطلح التسامح - هو النظر في معانيها ومدلولاتها، فإذا كان المصطلح الأجنبي يفيد معنى من المعاني الموجودة لدى المسلمين، أو له واقع عندهم، قُبل. وأما إذا كان المصطلح يفيد ما يخالف ما عند المسلمين، أو لا يوجد له واقع عندهم، رُدّ.

ولما كان مصطلح التسامح يفيد من حيث الأساس الذي بني عليه معنى قبول الآخرين أي قبول من يخالفك في المذهب، والدين، والعرق، واللون، وعدم منعهم من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلي عن آخريتهم، وكان معنى قبول الآخرين مما لا يخالف الإسلام، ومما له واقع لدى المسلمين —كما سيأتي بيانه مفصلا - فإننا لا نرى مانعا شرعيا من استعمال المصطلح.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّنا لا نرى مصطلح التسامح من المصطلحات الأجنبية الغربية الدخيلة على الثقافة الإسلامية والمفردات الشرعية.

والواقع، أنّ هناك العديد من الألفاظ التي قد يتصوّر كونها غربية، وهي في حقيقتها عالمية، موجودة في كلّ الثقافات البشرية ومستعملة عند البشر كلّهم، من ذلك، لفظة العدل، والحرّية، والجمال، والخير والشرّ، والحسن والقبح، وغيرها من الألفاظ التي اتفق البشر على استعمالها، فجرت على ألسنتهم، ووجدت في ثقافاتهم مع خلاف في المفهوم منها والمعنى المراد بها.

والتسامح أو السماحة فضيلة أدركتها البشرية، واحتاجت إليها لتسيير معاملاتها، وتسهيل ديمومة علاقاتها. فهي، شأنها شأن بقية الفضائل الأخرى كالصدق والأمانة والشجاعة والعفة والجود وغير ذلك، مما وجدت عند البشر كلّهم، فاتّصفوا بها، وجعلوها خلقا حسنا يمدح المتحلّي بها.

إلاّ أنّ درجة الالتزام بالفضائل متفاوتة بين البشر، فتجدها عند أحدهم ولا تجدها عند الآخر، وتظهر في جماعة ولا تظهر في الأخرى، وهذا عائد إلى الدافع إلى الالتزام بها والمقصد منها، وهو ما يختلف فيه البشر بوصفهم الفردي والجماعي لاختلاف عقائدهم والمفاهيم المنبثقة عنها المنظمة للسلوك الفردي والجماعي.

بناء عليه، فإنّ الغرب في نظرنا لم يبتدع مصطلح التسامح، ولم يبتدع مدلوله ومعناه، وإنما أظهره وأبرزه، واعتنى به فأصّل له وفرّع عنه، فكان منه المقبول، ومنه المردود عليه.

تحقيق واقع قبول الآخر

التسامح هو قبول الآخر. وهذا المعنى أي معنى قبول الآخر من المعاني المجرّدة التي لا تمثّل واقعا ولا تضبط أمرا حسيا، ولا ينتج عنها أيّ التزام أو مسؤولية شرعية كانت أم قانونية وضعية، لذلك كان لا بدّ من ضبط المعنى بتحديد موضوع القبول وواقعه الذي ينصبّ عليه.

وقد ذهب رجال الفكر والقانون في الغرب إلى اعتبار العرق، واللّون، والدّين، والانتماء الفكري والسياسي، والطبقة الاجتماعية، والجنس، موضوع القبول. فهم قد انطلقوا من أنّ الآخر الذي هو الإنسان بوصفه الفردي والجماعي يتميّز عن أخيه الإنسان في الاعتبارات المذكورة آنفا. وبناء على هذا الواقع عندهم الذي تبلور في أذهانهم تدريجيا منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا، صاغوا مفهوم التسامح، وقنّنوه، وجعلوه قيمة بشرية وقانونا عالميا ملزما.
ولما كان الإنسان هو مركز البحث، والأساس فيه، وبناء على نظرتنا إليه يتحدّد مفهوم التسامح، كان لزاما علينا من هذا المنطلق أن نلقي بنظرة فاحصة عميقة على الإنسان، نحدّد من خلالها ماهيته، وما يميّزه عن غيره من بني الإنسان بوصفه الفردي والجماعي.
والنظرة العميقة إلى الإنسان تري أنّ فيه غرائز وحاجات عضوية تدفعه إلى السلوك في الحياة من أجل إشباعها، ولديه عقل ينظّم له عملية الإشباع وكيفيته. والملاحظ لدى كلّ ذي عقل سليم أنّ الإنسان من حيث هو إنسان لا يختلف

عن أخيه الإنسان في غرائزه وحاجاته العضوية. فالجوع، والعطش، والخوف، والتقديس، والرغبة في ممارسة الجنس والإنجاب وغير ذلك، كلّها مظاهر الغريزة والحاجات العضوية، نجدها عند الأسود والأبيض، وعند العربي والأوروبي، وعند المؤمن والملحد، لا فرق في ذلك بينهم. والملاحظ أيضا عند كلّ ذي عقل سليم أنّ الإنسان يختلف عن أخيه الإنسان في كيفية الإشباع أي في النظام الذي يسير عليه في عملية إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، وفي الأشياء محلّ الإشباع. فنجد الخنزير عند أحدهم مما يجوز إشباع الجوع به، وعند الآخر مما لا يجوز، ونجد الزنا عند أحدهم مما يجوز، وعند الآخر مما لا يجوز.

بناء عليه، فإنّ النظرة العميقة إلى الإنسان ترينا أنّ الغرائز والحاجات العضوية، وما نتج عنها من مشاعر وأحاسيس ودوافع، مما يشترك فيه البشر قاطبة لا فرق فيه بينهم البتة، وأنّ النظام الذي ينظّم عملية الإشباع لدى البشر، والمفاهيم الضابطة لسلوكهم عن الأشياء محلّ الإشباع وكيفيته، مما يختلف فيه البشر ولا اشتراك فيه بينهم. وبعبارة أخرى فإنّ المشترك بين البشر هو ما جبلوا عليه، وكان فيهم خِلقة أي هو الفطرة أو ما يسميه الغربيون "الطبيعة"، والمختلف بينهم الذي يميّزهم أفرادا وجماعات هو المكتسب لديهم الناشئ عن تفاوت الرؤى إلى الأمور والأشياء. فالرغبة في التملك، والرغبة في ممارسة الجنس، والتقديس، والحاجة إلى الأكل والشرب، فطرة في البشر يستوون فيها ولا يتميز بها أحدهم عن الآخر. والعقائد، والأنظمة، والمقاييس، والأفكار مكتسبة عند الإنسان، يتميّز بها أحدهم بوصفه الفردي أو الجماعي عن الآخر.

ومما يضاف إلى ما يتميّز به إنسان عن أخيه الإنسان، العرق واللون والجنس. فهذه الأمور الثلاثة وإن كانت غير مكتسبة عند الإنسان إلاّ أنّها مما يتميّز بها إنسان عن آخر؛ فالمغولي غير الأوروبي من حيث العرق، والأسود غير الأبيض من حيث اللون، والذكر غير الأنثى من حيث الجنس أو النوع.

تحقيق معنى قبول الآخر

معنى قبول الآخر هو الموافقة والرضا. وهو أيضا من المعاني المجرّدة التي تحتاج إلى ضبط واقع وتمثيل حسّي حتّى تدرك، وتتصوّر، ويصبح بإمكان العقل البشري فهمها. وهذا لا يتأتى إلاّ ببيان الموضوعات التي ينصبّ عليها القبول أي ببيان ما يراد الموافقة عليه والرضا به.

والبديهي، أنّ قبول إنسان الآخر أو رفضه ينصبّ على ما يجعل هذا الآخر مختلفا عن ذاك الإنسان ومغايرا له، ولا ينصبّ على ما يشترك فيه الاثنان ولا يتميّز به أحدهما عن الآخر. ذلك، أنّ الإنسان من حيث الفطرة وأصل الخلقة هو الإنسان، لا فرق فيها بين شخص وآخر ذكرا كان أم أنثى، أسود كان أم أبيض، عربيا كان أم أوروبيا. فالغرائز والحاجات العضوية هي هي عند جميع البشر. فلا ترد هنا مسألة القبول أو الرفض بل لا ترد هنا مسألة الآخر؛ لأنّ الآخر هو المقابل لك المختلف عنك بسمات وميزات جعلته بالنسبة لك كيانا منفصلا قائم الذات.

وعليه، فإنّ قبول الآخر أو رفضه يكون في الأمر الذي ميّزه عن أخيه الإنسان، وهو كما مرّ معنا منه ما هو مكتسب كالأفكار، ومنه ما هو غير مكتسب ولا إرادة للبشر في اختياره كالعرق واللون والجنس. فالإنسان يولد أوروبيا أو أمريكيا، أو يولد أبيض أو أسود، أو يولد ذكرا أو أنثى دون إرادته واختياره.

والموافقة المرادة هنا، إمّا أن تكون على وجود الآخر أي توافقه على حقّه في الوجود بوصفه الفردي أو الجماعي، وإمّا أن تكون على مطلب للآخر كالعيش معك، وإمّا أن تكون على ما جعل الآخر في نظرك آخر أي توافق على تميّزه عنك بأفكاره وعقيدته ولونه وعرقه وجنسه وغير ذلك.

والرضا المراد هنا، إمّا أن يكون رضا بالآخر بالرغم مما هو عليه أي ترضى بالآخر كما هو بسماته التي ميّزته عنك، وإمّا أن ترضى له ما هو عليه، وإما أن ترضى عمّا هو عليه.

هذا هو معنى قبول الآخر، وهذا هو المراد منه المتبادر إلى الذهن حين بحث المسألة، فما هو حكم الإسلام في هذا؟ وما هي المعاني التي اعتبرها الإسلام، وما هي المعاني التي لم يعتبرها؟

والجواب عن هذه الأسئلة نراه ضمن الفصول القادمة من الكتيب.

قبول من خالفك في العرق واللون

لم يعتبر الإسلام المخالفة في العرق واللون بين البشر في أيّ شيء، فكلّ الناس في نظر الله عزّ وجلّ، وفي نظر نظام الإسلام وقانونه سواسية، لا فرق بين عربي وعجمي، وبين تركي وأوروبي، أو بين أسود وأبيض، وبين أصفر وأحمر إلاّ بالتقوى التي هي العمل بطاعة الله سبحانه وتعالى رجاء رحمته ورضوانه ومخافة عصيانه وعقابه. قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**} (الحجرات١٣)، وقال سبحانه: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}** (الروم٢٢).
وقد أرسل الله عزّ وجلّ محمّدا ﷺ إلى الناس كافة رحمة للعالمين، فقال سبحانه: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** (سبأ٢٨) وقال:**{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** (الأنبياء١٠٧).

وقد دعا النبي ﷺ الناس جميعا إلى الإسلام، فدخلوا فيه أفواجا؛ دخل فيه سلمان الفارسي، وكان من الصحابة الأولين، ومن المقرّبين من نبي الرحمة ﷺ حتّى قال فيه ﷺ فيما يروى عنه: "**سلمان منا آل البيت**" (رواه الطبراني والحاكم)، وولاّه عمر بن الخطّاب المدائن. ودخل فيه بلال الحبشي الأسود وكان من الأوّلين ومن المقرّبين، وهو مؤذن الرسول ﷺ وإمام المؤذنين. ودخل فيه صهيب الرومي، وكان هو الآخر من الأولين المقربين، وهو إمام المضّحين

بأموالهم ونفوسهم في سبيل الله. ذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله سبحانه فيه قوله: {**ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**} (البقرة٢٠٧). ودخل فيه عبد الله بن سلام اليهودي، وكان من الصحابة المبشرين بالجنّة. أخرج مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد قال: سمعت أبي يقول: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: لحي يمشي، إنه في الجنة إلا لعبد الله بن سلام».

إنّ التمييز العنصري القائم على العرق واللون مما حرّمه الإسلام، واعتبره عصبية جاهلية منتنة. فعن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيّ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمّيّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيّةٌ**» (رواه مسلم).

وأما في الغرب، فإنّه وإن كانت هناك جملة كبيرة من القوانين التي تمنع التمييز، وتقاومه، إلاّ أنّها لم تلامس عقلية الكثيرين من الغربيين ونفسيتهم. فحوادث التمييز العنصري القائم على العرق واللون أكثر من أن تعدّ في المجتمع الغربي، وسجون الولايات المتحدة وفرنسا، ونشأة الأحزاب القومية في أوروبا، أكبر شاهد على ذلك. وفي خطاب للرئيس الأميركي السابق كلينتون، في جامعة كاليفورنيا عام ١٩٩٧م قال فيه، ما يعدّ شهادة تاريخية عن وضع التمييز العنصري في أميركا دعيّة الحرية: "لقد ولدنا بإعلان استقلال أكد أننا جميعا

خلقنا متساوين، ودستور يكرّس العبودية، خضنا حربا أهلية دموية من أجل إلغاء العبودية، ولكننا بقينا وبحسب القانون لمدة قرن غير متساوين. عبرنا القارة قدما باسم الحرية، وبينما كنّا نصنع ذلك طردنا الأميركيين الأصليين من الأرض. نرحب بالمهاجرين، ولكن موجة جديدة منهم شعرت بلسع التمييز."

إنّ نجاح الإسلام في إذابة فروق العرق واللون في المجتمع الإسلامي يعود إلى إيمان معتنقيه بأنّه الحقّ من ربّ العالمين، وأنّ التمييز العنصري حرام يعاقب عليه الله يوم القيامة. فالإسلام يغرس في نفوس أتباعه فكرة "كلّكم من آدم، وآدم من تراب"، فلا فرق بين البشر إلاّ بالتقوى. ولله در من قال:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

وأمّا فشل الغرب في القضاء على النزعة العنصرية في مجتمعه، فيعود إلى أنّ القانون لا يلتزم به قناعة فيه، وإيمانا بأنّه الحقّ، إنما خوفا من العقاب الدنيوي. لذلك، فإنّ الكثيرين في الغرب يبطنون التمييز، ويعتقدون أفضليتهم على الآخرين لمجرّد كونهم ولدوا بيضا أو أوروبيين، وكلّما سنحت الفرصة بإظهار قناعتهم أظهروها، والشاهد عليه ما يلاقيه السود من تمييز عنصري في أميركا حتى إنّ غور فيدال قال خلال حرب الخليج" بأنه ليس شديد القلق من صَدّام لأنه ليس أسوأ من شرطة لوس أنجلس. وكان أفراد من شرطة لوس أنجلس صُوّروا

لتوّهم على شريط فيديو وهم ينهالون بالضرب على مشبوه أسود".[٨] والشاهد أيضا ما يلاقيه المسلمون من تحقير، ومهانة، وتمييز بعد أحداث ٩/١١/ ٢٠٠١م بناء على قانون "التعبئة ضدّ الإرهاب" المدعوم بقانون من قبله هو قانون "الأدلة السرّية" وغير ذلك من القوانين التي تضيّق على المسلمين حياتهم وتجرّمهم حتى أصبح من الصعب على المهاجرين أو على أبنائهم أن يجدوا عملا في بلاد الغرب. وهذه حقيقة شهدت بها منظمات حقوق الإنسان.

---

[٨] نقلا عن كتاب (ساعتان هزتا العالم) لفريد هاليداي ص٧٠

قبول من خالفك في الجنس

إنّ ما يسمّى بقضية المرأة، من القضايا التي يعتمدها الغرب في نشر حضارته ونقض حضارة الآخرين، وعلى وجه الخصوص الحضارة الإسلامية. فالغرب يدّعي أنّه يحترم المرأة ويكرمها، فتبنّى فكرة تحريرها، ونادى بحقّها في الحياة والمجتمع، وطالب بمساواتها بالرجل. ولقد خفي عن الغرب، أنّ الدعوة إلى تحرير المرأة اعتراف باستعباده لها، والدعوة لإعطائها حقوقها اعتراف بهضمه لحقوقها، والمطالبة بمساواتها بالرجل اعتراف بأنّها ناقصة عنده.

إنّ القول بالمساواة بين شيئين يعني التفرقة بينهما ابتداء، أي النظر في الشيئين كشيئين منفصلين لا علاقة لأحدهما بالآخر، ثمّ الحكم عليهما بعد النظر المنفصل بتساويهما لوجود ما يجمع بينهما. لذلك، فإنّ المساواة، باعتبارها حكما لاحقا، تشير إلى حكم سابق يفيد الفصل والتمييز بين شيئين. وهذا يدلّ على أنّ حكم الأصل عند الغربيين هو التمييز بين الرجل والمرأة.
ثمّ إنّ المساواة تقتضي سبق المثال الذي يقاس عليه، لذلك فمساواة المرأة بالرجل، تعني جعل الرجل المثال الذي يقاس عليه والأساس الذي ينطلق منه، وهذا يعني بديهيا، أنّ المشرّع الغربي قد راعى الرجل في التشريع ابتداء ثمّ ألحق به المرأة. لذلك، فإنّ أصل التشريع الغربي منصبّ على الرجل وليس منصبا على الإنسان كإنسان هو الرجل والمرأة.

وقد يظنّ بعض النّاس، أنّ الغرب حقّق ما يدّعيه من مساواة بين الرجل والمرأة، وأنّه ضمن للمرأة حقّها كلّه، غير أنّ هذا الظنّ ليس في محلّه، فلا زال الغرب منشغلا بالمسألة ذاتها التي مضى عليها عقود من الزمن. وهاهو البرلمان الألماني – مثلا – يعدّل في ٣٠ يونيو ١٩٩٤م المادة الثالثة من دستوره فينصّ على ما يلي: " تقوم الدولة بتشجيع ودعم التطبيق الفعلي للمساواة بين النساء والرجال، وتعمل على إزالة المساوي الموجودة".[٩]

وهذا التعديل الدستوري، لا يدلّ على مجرّد اعتراف فقط بعدم تحقّق المساواة بين النساء والرجال بل هو بمثابة التنصيص الدستوري على ذلك، فإذا نصّ الدستور في سنة ١٩٩٤م، على العمل على التطبيق الفعلي للمساواة، فإنّه ينصّ ضمنا على عدم وجودها ويؤرّخ لذلك.

والأصل في فكرة المساواة التي يتبنّاها الغرب الوضع المشين الذي كانت عليه المرأة في المجتمع الغربي. ذلك، أنّ المرأة كانت مهضومة الحقوق، معزولة عن حركة المجتمع، لا يُلتفت إليها ولا يعبأ بها، فلمّا طالبت بحقوقها اتّخذت فكرة المساواة كطريق لتحقيق مطالبها، ونودي بالتسامح معها.

ونظرة الاحتقار إلى المرأة في الغرب، ليست نصرانية فقط تقوم على ادّعاء الكنيسة بأنّ المرأة كائن بين الإنسان والحيوان، بل هي نظرة الكثيرين من

---

[٩] مجلة ألمانيا DEUTSCHLAND العدد ٥ شهر ١٠ سنة ١٩٩٥ ص١٤

فلاسفة الغرب منذ قديم الزمن. ففي تصوّر الفيلسوف أرسطو مثلا (ت٣٢٢ ق.م): "المرأة من الرجل كالعبد من السيد، وكالعمل اليدوي من العمل العقلي، وكالبربري من اليوناني. والمرأة رجل ناقص، تركت واقفة على درجة دنيا من سلّم التطوّر...".[١٠]

وفي الأمثال الدارجة الأوروبية فإنّ المرأة "ذات شعر طويل وعقل قصير". وبلغتهم كما هو دارج عندهم يقولون:

بالفرنسية: longs cheveux, courte cervelle

وبالألمانية: lange Haare, kurzer Verstand

وبالإنجليزية: women have long hair and short brains

ولا زال هذا التصوّر سائدا في المجتمع الغربي، يبطنه الرجال ولا يفصحون عنه، ومع ذلك فإنّه يظهر في مظاهر متعدّدة منها، أنّ أجر المرأة العاملة أقلّ ب٣٠% من أجر الرجل العامل، وأنّ ٧٢ % من العاملات تعرّضن لتحرّش جنسي أثناء عملهنّ، وأنّ حوالي ٧٠% من المتزوّجات تعرّضن للضرب من أزواجهن، وأنّ حوادث الاغتصاب تفوق العدّ، ففي أمريكا مثلا تغتصب امرأة ما بين كلّ ثلاث أو خمس دقائق.

وقد أخطأ الغرب حينما جعل المرأة مشكلة، وجعل طريق حلّها فكرة المساواة. ذلك، أنّ المرأة نصف المجتمع –كما يقال – وصنو الرجل، فلا يتصوّر وجود

---

[١٠] قصة الفلسفة، ول ديورانت ص٩٧

مجتمع بدون نساء، ولا حياة بدون مشاركتهنّ، فكان من الخطأ أن ينظر إليهنّ نظرة مغايرة للرجال، ومن الخطأ أن يبحث في وجودهنّ وموقعهنّ في الحياة ودورهنّ في المجتمع كمشكلة خاصّة بهنّ.

فلقد خلق الله تعالى الإنسان امرأة ورجلا في فطرة معيّنة تمتاز عن الحيوان، فالمرأة إنسان، والرجل إنسان، ولا يختلف أحدهما عن الآخر في الإنسانية، ولا يمتاز أحدهما عن الآخر في شيء من هذه الإنسانية. وقد هيأهما الله لخوض معترك الحياة بوصف الإنسانية، وجعلهما يعيشان حتما في مجتمع واحد، وجعل بقاء النوع متوقّفا على اجتماعهما، وعلى وجودهما في كلّ مجتمع. فلا يجوز أن ينظر لأحدهما إلاّ كما ينظر للآخر، بأنّه إنسان يتمتّع بجميع خصائص الإنسان ومقوّمات حياته. فقد خلق الله في كلّ منهما طاقة حيوية، هي نفس الطاقة الحيوية التي خلقها في الآخر. فجعل في كلّ منهما الحاجات العضوية كالجوع، والعطش، وقضاء الحاجة. وجعل في كلّ منهما غريزة البقاء، وغريزة النوع، وغريزة التدّين. وهي نفس الحاجات العضوية والغرائز الموجودة في الآخر. وجعل في كلّ منهما قوّة التفكير وهي نفس قوّة التفكير الموجودة في الآخر. فالعقل الموجود عند الرجل هو نفس العقل الموجود عند المرأة إذ خلقه الله عقلا للإنسان، وليس عقلا للرجل أو المرأة. قال الله تعالى: **{ولقد كرمنا بني آدم...}** (الإسراء ٧٠).
وحين جاء الإسلام بالتكاليف الشرعية التي كلّف بها المرأة والرجل، وحين بيّن الأحكام الشرعية التي تعالج أفعال كلّ منهما، لم ينظر إلى مسألة المساواة أو المفاضلة بينهما أية نظرة، ولم يراعها أية مراعاة، وإنما نظر أنّ هناك مشكلة معيّنة

تحتاج إلى علاج، فعالجها باعتبارها مشكلة معيّنة بغضّ النظر عن كونها مشكلة لامرأة أو مشكلة لرجل. فالعلاج هو لفعل الإنسان أي للمشكلة الحادثة، وليست المعالجة للرجل أو المرأة؛ ولهذا لم تكن مسألة المساواة أو عدم المساواة بين الرجل والمرأة موضع بحث، وليست هذه الكلمة موجودة في التشريع الإسلامي، بل الموجود هو حكم شرعي لحادثة وقعت من إنسان معيّن، سواء أكان رجلا أم امرأة.

فالإسلام حين جعل للمرأة حقوقا وجعل عليها واجبات، وجعل للرجل حقوقا وجعل عليه واجبات، إنما جعلها حقوقا وواجبات تتعلّق بمصالحهما، ومعالجات لأفعال باعتبارها فعلا معيّنا لإنسان معيّن. فجعلها واحدة حين تقتضي طبيعتهما الإنسانية جعلها واحدة، وجعلها متنوعة حين تقتضي طبيعة كلّ منهما هذا التنوع.

ومن هنا نجد الإسلام لم يفرّق في دعوة الإنسان إلى الإيمان بين الرجل والمرأة، وجعل التكاليف المتعلّقة بالعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة واحدة من حيث التكليف، وجعل الأخلاق والاتصاف بها للرجال والنساء على السواء، وجعل أحكام المعاملات من بيع وإجارة ووكالة وغير ذلك واحدة للرجال والنساء، وأوجب التعلّم والتعليم بلا فرق بين الرجال والنساء. وهكذا شرّع الله الأحكام المتعلّقة بالإنسان كإنسان، واحدة للرجال والنساء. قال الله تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** (النحل٩٧).

وأمّا حين تكون هذه الحقوق والواجبات، وهذه التكاليف الشرعية تتعلق بطبيعة الأنثى بوصفها أنثى، أو تتعلّق بطبيعة الذكر بوصفه ذكرا، تكون هذه الحقوق والواجبات أي هذه التكاليف متنوعة بين الرجل والمرأة؛ لأنها لا تكون علاجا للإنسان مطلقا، بل تكون علاجا لهذا النوع من الإنسان الذي له نوع من الطبيعة الإنسانية مختلف عن الآخر، فكان لا بدّ أن يكون العلاج لهذا النوع من الإنسان، لا للإنسان مطلقا. ولذلك، خصّ الإسلام المرأة بأحكام تتعلّق بأنثويتها، كأحكام الحيض والنفاس، وجعل لها حقّ الحضانة دون الرجل، وجعل العمل لكسب المال مباحا لها فرضا على الرجل، ولم يوجب عليها القتال وأوجبه على الرجل.

قبول من خالفك في الفكر

إنّ الاختلاف بين البشر طبيعي، فلكلّ منهم عقيدته، ونظامه، ودينه، وطراز حياته، ونمط عيشه، ووجهة نظره، ومقياس أعماله، وأفكاره السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك. فمن الصعب، إن لم نقل من المستحيل، أن يجتمع البشر قاطبة على رأي واحد، وعقيدة واحدة، ودين واحد. قال تعالى: {**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** (١١٨) **إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** (١١٩)} (هود).

لذلك، فإنّ الإسلام يقرّ بوجود هذا الاختلاف بين البشر في عقائدهم وأفكارهم وأديانهم. قال تعالى: {**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**} (يوسف١٠٣)، وقال سبحانه: {**المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ** } (الرعد١).

هذا هو واقع البشر، وواقع اختلافهم في الفكر الذي لا يمكن نكرانه أو تحاشيه. والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: ما هي الأحكام المترتّبة على هذا الواقع؟ وكيف يتعامل الإسلام معه؟

والجواب عن هذا في النقاط التالية:

١ . إنّ الإسلام، وإن أقرّ اختلاف الفكر بين البشر أي اعترف بوجوده باعتباره واقعا قائم الذات لا يمكن نكرانه، لا يرضى به ولا يرضى عنه. فكلّ

فكر غير فكر الإسلام، وغير الفكر المبني على عقيدته والمنبثق عنها، يعتبر في نظر الإسلام باطلا لا حقّ فيه. قال الله تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** (آل عمران١٩) وقال تعالى: **{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** (آل عمران٨٥)، وقال سبحانه: **{فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}** (يونس٣٢). وقال الرسول ﷺ:« **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدّ** » (رواه مسلم).

فالإسلام، وإن وافق على وجود الخلاف بين البشر، فإنّه لا يوافق على ما خالفوا فيه ولا يقبله. وبعبارة أخرى فإنّ الإسلام يقبل واقع اختلاف البشر في الفكر، إلاّ أنّه لا يقبل الفكر الذي خالفه فيه إنسان ما، ولا يرضى عنه ولا يرضى له ذلك.

وهذا أمر بديهي؛ لأنّ الإنسان الذي قبل الإسلام وأسلم، قبله لأنّه الحقّ عنده، ورفض ما سواه من مبادئ وعقائد لأنّها باطل عنده. ولا معنى هنا لمسألة النسبية التي يُدندِن حولها الغرب؛ لأنّ الرأسمالي رأسمالي[11]، وسواء أكان إيمانه بعقيدته قطعيا أم نسبيا، فذلك لا يغيّر من واقع كونه رأسماليا، ولا يغيّر من واقع كونه لا يقبل الإسلام لأنّه باطل عنده، وكلّ ما في الأمر أنّه يرى الرأسمالية نسبيا هي الحقّ، والإسلام نسبيا هو الباطل، وهذا يعني أنّ الرأسمالية عنده حقّ

---

[11] نعني هنا بالرأسمالي الإنسان الغربي العلماني الملحد أو العلماني المؤمن بالنصرانية.

والإسلام باطل، لذلك آمن بالرأسمالية وكفر بالإسلام، والنتيجة أنّه لا يقبل فكر الإسلام.

وقد يقال هنا: صحيح أنّ الرأسمالي لا يقبل فكرك كمسلم، ولكنّه يرضى ذلك.
والجواب هو، إن أريد بقولهم يرضى ذلك أي يرضى مخالفتي له في الفكر، فإنّ رضاه أو عدم رضاه لا يغيّر من واقع وجود المخالفة شيئا. ثمّ إنّ المخالفة في الفكر مسألة طبيعية وواقع محتوم لا مناص منه، وكون الرأسمالي يرضى مخالفة المسلم له، أو المسلم يرضى مخالفة الرأسمالي له، مسألة ليس لها أيّ بعد عملي أو أيّ أثر في ممارسة كلّ منهما لما تبناه من فكر.
أمّا إن أريد بقولهم يرضى ذلك أي يرضى لي الفكر الذي خالفته فيه، فإنّ هذا هو الأنانية بعينها والخداع بذاته. فكيف يرضى لي ما لم يرضه لنفسه. أيرضى لنفسه الرأسمالية ويرضى لي الإسلام؟ أيرضى لنفسه الحقّ ويرضى لي الباطل؟ أنّى يكون هذا؟ لقد علّمنا الإسلام، نحن المسلمين، أن نرضى لغيرنا ما نرضاه لأنفسنا من خير، وأن لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا من شرّ. فسبحان الله ما أبعد البون وأوسع الخرق، وما أُمامَةُ من هِنْد.

وقد يقال أيضا: ولكنّ الرأسمالي يقبلك كإنسان له فكره المتميّز عنه المخالف لما عنده.
والجواب هو، إن صحّ هذا، فلا إشكال فيه.

٢ . إنّ الإسلام، وإن أقرّ اختلاف الفكر بين البشر، فهو من منطلق الرحمة بهم، وإرادة الخير لهم، شرّع ووجوب دعوتهم إلى الإيمان به، عقيدة ونظاما، وترك ما يعبدون ويعتقدون، ورتّب على ذلك فضلا كبيرا وأجرا عظيما. قال نبي الرّحمة ﷺ :" **فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النّعَمِ**" (متفق عليه).

وأخرج البخاري في صحيحه حادثة تبيّن أنّ المقصد من الدعوة الخير للبشر، والرحمة بهم. عن أنس (رضي الله عنه) قال: "كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: (**أسلم**). فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "**الحمد لله الذي أنقذه من النار**"، وفي رواية عند مُحَّمد بن الحسن في "كتاب الآثار" قال الرسول ﷺ: "**الحمد لله الذي أعتق بي نسمة من النار**".

وقد أراد الإسلام أن يكون دخول غير المسلمين فيه عن قناعة ورضا تامين بأنّه الحقّ المنزّل من ربّ العباد جلّ جلاله. قال الله سبحانه : **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** (البقرة٢٥٦)، وقال: **{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** (يونس٩٩).

لذلك، فإنّ الإسلام لا يُجوّز إكراه من كفر به على الدخول فيه، سواء أكان الإكراه على ذلك ماديا أم معنويا.

وقد حدّد الإسلام أسلوب دعوة الناس إلى الدخول فيه بالدليل القاطع والبرهان الساطع، والكلام البليغ المؤثّر في النفوس بتلطّف ولين دون مخاشنة وتعنيف. قال الله تعالى: **{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }** (النحل١٢٥).

ومن أروع الأحكام التي شرعها الإسلام مصداقا لرحمته وإرادته الخير بالبشرية كلّها، حكم "جوار العلم". قال تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ}** (التوبة٦). فإذا أراد أحد الناس من غير المؤمنين بالإسلام أن يتعرّف على الإسلام، فيسمع القرآن والسنّة، وتفسيريهما وشرحيهما، وعلومهما وقواعد فهمهما، ويرى التطبيق العملي لذلك في الدولة والمجتمع، فإنّه يدخل في جوار الله ورسوله، وفي ذمة المسلمين وأمانهم حتّى يتمّ له المراد. فإن آمن بعدها وأسلم فحسن، وإن أبى الإيمان والدخول في الإسلام ردّ إلى مأمنه سالما. فلله ما أروع هذا التشريع وأرقاه!

ومن هذا المنطلق فإنّ دولة الخلافة القادمة – بإذن الله تعالى – ستجير من شاء العلم بالإسلام وتعطيه الأمان؛ وذلك لأنّ الإسلام حريص على إنقاذ البشرية من الجهل الذي تتخبّط فيه، والظلم الذي تعانيه، فهو يريد إخراج الناس من ظلمات الكفر والإلحاد إلى نور الإيمان والإسلام. قال الله تعالى: {**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ**

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)} (المائدة).

٣ . بناء على قبول الإسلام واقع الاختلاف في الفكر بين البشر، وعدم إكراههم على التخلّي عن عقيدتهم ودينهم، فإنّ الإسلام يقبل مطلب الآخرين ممن هم على غير عقيدته ودينه بالعيش في مجتمعه ودولته، وبين المسلمين في حمايتهم ورعايتهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وقد قبل الإسلام أن يعيش الآخر بين المسلمين دون أن يتخلّى عن دينه، ودون أن يلزمه بذلك أو يشترط عليه ذلك، فهو بذلك يحافظ له على خصوصيته، ويصون له كينونته المتميّزة أي يضمن له بقاءه آخر كما شاء لنفسه. جاء في ميثاق المدينة: "..**وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين** [يريد ﷺ أَنهم بالصُّلْح الذي وقع بينهم وبين المؤمنين كجماعة منهم كلمَتُهم وأيديهم واحدة]، **لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته..**" (سيرة ابن هشام).

إنّ البشرية لم تعرف أعظم من المسلمين سماحة، يوفون بالعهد، ويصونون الأمان، ويحفظون الجوار، ويحسنون لمن اختار العيش بينهم. وها هي شهادة ليدي لوسي دف جوردون Lady Lucie Duff-Gordon وهي امرأة جاءت إلى مصر للاستشفاء وعاشت فيها وبخاصة في الصعيد لمدة سبع سنوات، ما بين نوفمبر ١٨٦٢م ويوليو ١٨٦٩م. وكانت ترسل رسائلها بانتظام إلى زوجها، ثم

نشرت رسائلها هذه منذ سنوات قليلة تحت عنوان (Letters from Egypt). كتبت تقول في رسالة إلى أمّها بتاريخ ٣ ديسمبر ١٨٦٢م: "إنّ الشيء الذي يسترعى الانتباه أكثر من غيره هنا هو روح التسامح التي ألمسها في كل مكان. فالناس هنا يكتفون بأن يقولوا لي: إن هذه إذن هي عوائدكم. ثم لا يعطون الأمر بعد ذلك أية أهمية، كما أن المسلمين والمسيحيين يرتبطون حقا بروابط الصداقة... لازلت أنتظر أن أرى ذلك التعصب الذي يتكلم (الأجانب) عنه كثيرا، ولكنني لم أر حتى الآن أي علامة من علاماته..".

ويقول برنارد لويس : "..فهذه المشكلة لم تنشأ في البلاد الإسلامية لأن الناس المنتسبين لأديان مختلفة في البلاد الإسلامية وجدوا إمكانية العيش هناك بصداقة وأخوّة وبدون صراع ونزاع..".

ويقول ول ديورانت (في قصة الحضارة): "لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم".

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه (في شمس العرب تسطع على الغرب): "العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها؛ سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى

أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟".

ويقول المؤرخ الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام": "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح".

قبول من خالفك في الحالة الاجتماعية

الطبقية هي تنظيم اجتماعي يقوم على انقسام الناس إلى طبقات. والطبقة هي مجموع الأشخاص الذين تجمع بينهم صفة معيّنة، كطبقة الأغنياء وطبقة العمال. والطبقية موجودة في المجتمعات الغربية، من ذلك أن أصحاب الجاه والنفوذ والمال يمثلون طبقة مختلفة عن عامة الناس، قد يطلق عليها "البرجوازية" أو "المجتمع الراقي" (High society).

ولهذه الطبقة "الراقية" في المجتمع الغربي عاداتها، وتقاليدها، وأخلاقها التي تميزها عن بقية الناس في المجتمع؛ فهم يأكلون، ويمشون، ويضحكون، ويلبسون، ويعيشون بصفة عامّة ضمن آداب معيّنة يتميّزون بها، يسمونها بالإتيكيت "Etiquette"، لا يشاركهم فيها الآخر.

ووجود الطبقية في المجتمع الغربي مسألة حتمية ناشئة عن وجود النظام الرأسمالي الذي يكدّس الثروة في يد قلّة من الناس، وما يتبع ذلك من تحالف مع السياسة والنفوذ. يقول ف. ويليام إنغدال في كتابه (قرن من الحروب): "قبل أن يخرج كارل ماركس بنظريته عن صراع الطبقات، فإنّ الليبرالية البريطانية قد تطوّرت لفكرة المدينة المنقسمة بين ما أُسمي (الطبقات العليا والطبقات السفلى)...ولقد قام والتر ليبمان بتعريف هذا الانقسام بطريقة حديثة تناسب قرّاءه الأمريكيين. فلقد قسّم المجتمع إلى أكثرية هي جمهور غبي، يقوده (الطبقة الخاصّة) من النخبة وهم كما وصفهم ليبمان، الرجال ذوي المسؤولية. وهؤلاء هم الذين يقررون المصلحة العامة للجميع. وتصبح هذه النخبة هي البيروقراطية المخلصة، والتي

تخدم مصالح أصحاب المصالح والثروة الخاصّة، لكن هذه الحقيقة من العلاقة بينهما يجب أن لا تذاع للجمهور الغبي، لأنهم لن يتفهموا الأمر. وعلى هذا الجمهور أن يتوهم بأنه يمارس قوته الديمقراطية، وعلى النخبة أن يكونوا هم صنّاع هذا الوهم".[١٢]

وأمّا الإسلام فإنّه لا يقرّ الطبقية من أي نوع كانت، ولا يعترف بها، ويحارب وجودها في المجتمع. فالناس كلّهم سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلاّ بالتقوى. لذلك، لا يوجد في الإسلام أخلاق "الطبقة الراقية" وأخلاق العامّة، ولا يوجد التفريق والتمييز بين الغني والفقير، وبين الحاكم الأمير والناطور"الغفير"، فكلّهم في نظر الله عزّ وجلّ، وأمام القانون سواسية. عن عائِشةَ أنّ قُرَيْشاً أَهَمّهُمْ شَأْنُ المرْأَةِ الْمخزُومِيّةِ التِي سَرَقَت. فَقالُوا مَنْ يُكَلّمُ فيهَا رسولَ الله ﷺ فقَالُوا مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلاّ أسَامَةُ بنُ زَيْدٍ حِبّ رسولِ الله ﷺ فكلّمَهُ أُسَامَةُ. فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَد مِنْ حُدودِ الله؟** ثُمّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقال: **إنّمَا أَهْلَكَ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ تَرَكُوهُ. وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ. وأَيْمُ الله لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» (رواه الترمذي).

ولقد علّم النبي ﷺ أصحابه المقياس الصحيح في الحكم على الناس، فبيّن لهم، وبيّن للمسلمين من بعدهم أنّ أساس التفاضل طاعة الله عزّ وجلّ وتقواه، وأنّ

---

[١٢] نقلا عن إمبراطورية الشرّ الجديدة، لعبد الحي زلوم، ص٢١٠

المرء يعدّ فاضلا إذا كان في عين الله تعالى كذلك. وأمّا المقاييس البشرية المبنية على النظر إلى الحالة الاجتماعية للشخص فلم يعتبرها الإسلام أساس التفاضل.

عن أبي ذر الغفاري (رضى الله عنه) قال: "قال لي رسول الله ﷺ: **يا أبا ذر انظر أرفع رجل في المسجد.** قال: فنظرت فإذا رجل عليه حلة قال: قلت: هذا. قال: قال لي: **انظر أوضع رجل في المسجد.** قال: فنظرت فإذا رجل عليه أخلاق قال: قلت: هذا. فقال رسول الله ﷺ: **لهذا عند الله أخير يوم القيامة من ملء الأرض من مثل هذا"** (رواه أحمد).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: **"رُبّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىَ اللّهِ لأَبَرّهُ"** (رواه مسلم).

وعَن أَبِي مَسْعُود قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ. فَكَلَّمَهُ. فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ. فَقَالَ لَهُ: **"هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ"** (رواه ابن ماجه)، وهذا من تواضعه ﷺ ورحمته بالناس ورأفته بهم.

احترام الخصوصية الثقافية

يتجلى التسامح عند المسلمين تلقائيا في الحياة والمجتمع عبر مظاهر عديدة، فيتجلى في المعاملات التزاما بقول الرسول ﷺ: "**رحم الله رجلا، سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**" (رواه البخاري)، ويتجلى في الحرب رغم أنها ميدان قسوة التزاما بقول الرسول ﷺ: "**اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**" (رواه مسلم)، ويتجلى في حسن الجيرة، عن عبد الله بن عمرو أنه ذبح شاة فقال: أهديتم لجاري اليهوديِّ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتَّى ظننت أنه سيورّثه**" (رواه أبو داود)، ويتجلى في احترام الإنسان لإنسانيته، ففي حديث سهل بن حنيف وقيس بن سعد عند البخاري أن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له إنها جنازة يهودي فقال: "**أليست نفساً**"، ويتجلى في غير ذلك من السلوكيات التي شرعها الإسلام وأقرها.

كما يتجلى التسامح الإسلامي في جملة من الأحكام التي تشمل علاقة المسلم بالآخر الذي يخالفه في العقيدة، أي علاقة المسلم بغير المسلم، ومن أهمّ هذه الأحكام احترام الخصوصية الثقافية للآخر. ذلك، أن الإيمان بعقيدة ما أو دين ما يترتب عليه الالتزام بمجموعة من الأحكام التي يفرضها ذلك الدين. ولما كان الإسلام قد اقرّ حق الغير في أن يدين بغير دينه فإنه يقرّ أيضا بما يترتب على ذلك من التزامات. لذلك، فإن الإسلام يراعي خصوصية الآخر الثقافية والحضارية، فيعامله في أمور المطعومات والملبوسات والزواج والطلاق وغير ذلك حسب أحكام دينه الذي ارتضاه. فعن عروة قال: "**كتب رسول الله صلى الله**

عليه وسلم إلى أهل اليمن أنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها" (رواه أبو عبيد في الأموال).

وهنا نقف وقفة قصيرة لنبين أوجه الفرق بين التسامح الإسلامي والغربي عمليا. فالإسلام يبيح لغير المسلمين أن يأكلوا الخنزير ويشربوا الخمر في المجتمع الإسلامي، مع أنه يحرمهما على أتباعه ويعتبرهما منكرا من أكبر المنكرات، إلا أنه يبيحهما لأن أتباع الدين النصراني يقولون بحلهما. وفي المقابل نرى الغرب يمنع المسلمين من ذبح الحيوان حسب طريقتهم، ويعاقب على فعلها مع أن المسلم ملزم بذلك وإلا حرم عليه الأكل. وحتى بعض البلاد الغربية التي سمحت بذلك مؤخرا فقد سمحت به بعد جهد عشرات السنين. والأعجب من هذا أن يعتبر الغرب عبارة "حلال" التي تكتب على واجهات المطاعم مثلا تحديا للقيم الغربية وخطرا على هوية المجتمع ورفضا للاندماج؟!

ونرى الإسلام أيضا يفصل في أمور الزواج والطلاق بين غير المسلمين حسب دينهم، وفي المقابل فإن أغلب الدول الغربية لا تعترف بالزواج الإسلامي، وتفرض على المسلمين زواج البلدية حسب التصور الغربي. كما نرى الإسلام لم يوجب الجندية على غير المسلمين، ولم يوجب عليهم القتال مع جيشه إلا إذا شاءوا ذلك عن محض إرادتهم. وفي المقابل فإن الغرب يوجبه على المسلمين، ويوجب أن يقاتل المسلم المسلم وإلا اعتبر غير موال له.

فمن يحترم الخصوصية الثقافية للآخر، الإسلام أم الغرب؟

خاصية التسامح الإسلامي

ينبع التزام المسلم بالإسلام من أعماقه وداخله، ومن إيمانه به كدين رباني أنزله ربّ العالمين لينظم شؤون الإنسان في الحياة. لذلك فإنّ المسلم الذي آمن بالإسلام، لا توجد لديه إشكالية الممارسة والتطبيق؛ لأنه يعيش الإسلام في الحياة طوعا، وقناعة، وتصديقا به. فالحكم الذي ثبت أنه من عند الله، يطبقه المسلم دون تفكير في منفعة أو مصلحة أو ضرر. فإذا كان الإسلام قد حرم إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام، فإن الدولة لا تكرههم بحجة الاندماج، ولا تطردهم من دارها لرفضهم القيم الإسلامية. فالدولة، والمسلمون جميعا، يلتزمون بأحكام الإسلام بغض النظر عن المنفعة والمصلحة التي فيها. لذلك لا يتصور في الإسلام أن يعطى أهل الذمة حقا من الحقوق، ثم يسحب منهم لسبب من الأسباب. ولا يتصور من الإسلام أن يدعو إلى التسامح مع أهل الذمة، ثم يهينهم، ويسب عقائدهم وأديانهم، لأنهم رفضوا الدخول في الإسلام. لا يتصور هذا، لأنّ الإسلام ثابت في قيمه، وأخلاقه، ومقاييسه، وقناعاته، فلا يتغير مع تغير الحكومات، أو الأوضاع والحوادث. فهو دين رباني ثابت في تصوره وقواعده.

صحيح أن غير المسلمين قد يخالفون العهد الذي بينهم وبين الدولة، لكن الإسلام يعدل بينهم حتى وإن خالفوا النظام والعهد، فلا يحاسبهم كلهم على جرم قام به أحدهم، ولا يعاقبهم كلّهم على خطأ صدر من واحد منهم، ولا يغير القانون من أجل ذلك. أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه قال: «لما فُتحت

خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: (**اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود**). فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: (**إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه**). فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (**من أبوكم**). قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: (**كذبتم، بل أبوكم فلان**). فقالوا: صدقت وبررت، فقال: (**هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه**). فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، قال لهم رسول الله ﷺ: (**مَنْ أهل النار**). فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: (**اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً**). ثم قال لهم: (**فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه**). قالوا: نعم، فقال: (**هل جعلتم في هذه الشاة سماً**). فقالوا: نعم، فقال: (**ما حملكم على ذلك**). فقالوا: أردنا: إن كنت كذاباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك».

وقد ثبت في الروايات أن النبي ﷺ لم يعاقبهم، وتركهم، وقيل في بعض الروايات إنه قتل المرأة التي قدمت له الشاة؛ لأنّ البشر بن البراء الصحابي مات مسموما بشاتها بعدما أكل منها، فكان قتلها لوحدها قصاصا.[١٣] وهو العدل الذي لم يعرف له التاريخ مثيلا.

---

[١٣] ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج٨ ص٢٨٢

فرية معاداة السامية

بغضّ النظر عن الخلفية التاريخية والسياسية لفكرة معاداة السامية، وبغضّ النظر عن كونها نشأت كنتيجة لاضطهاد أوروبا لليهود، فإننا نتناول فكرة معاداة السامية من زاويتين:

الأولى: إذا افترضنا حسن النية في فكرة معاداة السامية، باعتبار أنّ اليهود لاقوا الويلات على أيدي الأوروبيين، شرقيين كانوا أم غربيين، فظهرت فكرة التسامح معهم، ودعي لقبولهم ومنع التمييز العنصري في حقّهم، فإنّ الإسلام كما أسلفنا القول، يحرّم التمييز قبل ظهور هذه الدعوة، ويعتبر اليهود بشرا شأنهم شأن البقية. فلا فرق بينهم وبين العرب أو الأوروبيين أو الترك.

ولقد كانت نظرة المسلمين إلى اليهود، ولا زالت، كبشر يتساوون مع غيرهم في الإنسانية. لذلك، لم تشهد المجتمعات الإسلامية التي عاش فيها اليهود، وفرّوا إليها من ظلم الأوروبيين واضطهادهم لهم أيّ حادثة من حوادث التمييز العنصري في حقّهم. فقد عاشوا بين المسلمين، ولا زالوا إلى هذه اللحظة، رغم المسألة الفلسطينية، يعيشون بينهم في اليمن، وتونس، والمغرب، ومصر وغيرها من بلاد المسلمين، محترمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

وعليه، فإنّ الحديث عن معاداة السامية لا يشمل المسلمين الذين يحرّم دينهم التفريق بين البشر على أساس العرق، وإنما يشمل غيرهم من الذين يرون أنفسهم فوق البشر لعرقهم ولونهم الذي لم يختاروه.

وحينما عبّر شكسبير في (تاجر البندقية) عن ألم اليهودي مما يلاقيه من عنصرية، قائلا ساخرا: " ..ولماذا؟ لأني يهودي. ولكن، أليس لليهودي عيون، أليس لليهودي أياد، وأطراف، وحواس، ومشاعر، ورغبات..."، إنما عبّر عن صورة يعيشها في مجتمعه وليس في مجتمعنا.

وأما حقيقة الصراع بين المسلمين واليهود اليوم، فهو صراع سياسي لا دخل للعرق فيه عند المسلمين. فاليهود اغتصبوا أرضا إسلامية بمباركة الغرب، هي أرض فلسطين، وأقاموا فيها دولة غصبا عن المسلمين.

واليهود هم من يمارس العنصرية، والتطهير العرقي في فلسطين، بقتلهم الرجال والأطفال، وتدمير البيوت، وتهجير السكان، وبناء المستوطنات. ولقد بالغ اليهود في تمييزهم، ولا سيما في عهد شارون، حتى قال واحد منهم، هو يوسي ساريد زعيم حزب ميرتس (Meretz party) :"إنني كيهودي وإسرائيلي أشعر بالخزي لأنني أعيش في بلد يحكمه وزراء عنصريون يؤمنون بسياسة الترحيل".

وقال القسيس الجنوب أفريقي ديزموند توتو (Desmond Tutu) الحائز على جائز نوبل، واصفا الوضع في فلسطين، فيما نشرته صحيفة الغارديان اللندنية في عددها الصادر يوم الاثنين ٢٠٠٢/٤/٢٩م تحت عنوان: (التمييز العنصري في الأرض المقدّسة) (Apartheid in the Holy Land): "...لقد صعقت وأصابتني الكآبة لدى زيارتي للأرض المقدسة. لقد ذكرني ما رأيت بما عانيناه نحن السود في جنوب أفريقيا. شهدت بأم عيني الإذلال الذي يتعرّض له الفلسطينيون على نقاط التفتيش والحواجز، وهم يتعرضون للذل والمهانة ويعانون

مثلنا عندما كان رجال الشرطة البيض الشبان يحولون دون تجولنا وخروجنا من بيوتنا...".

الثانية: إنّ معاداة السامية تتعلّق بالعرق، أي معاداة اليهود لأنّهم يهود، وأمّا نقد التصرّفات اليهودية، وفضح أفكار بعضهم الهدّامة، وأفعالهم الخبيثة في عرف البشر قاطبة، فإنّه لا يتعلّق بالعرق، ولا يعني انتقاصهم أو نظرة دون إليهم لأنهم من عرق غير عرق الآخر.

فبعض الألفاظ التي تستعمل عند المسلمين، مثل اليهود قوم بهت، وقتلة الأنبياء، ومفسدون في الأرض، ويخونون العهد ولا يوفون بالذمة، كلّها تتعلّق بوصف أفعال اليهود الباطلة وتصرّفاهم الخبيثة التي قاموا بها ولا زالوا يقومون بها. فهي لا تتعلّق بعرق اليهود، ولا تستنكره، ولا تحقّره، ولا تنتقص منه، وأنّى يكون ذلك وعلماء الأنثروبولوجيا يجعلون العرب واليهود من أصل واحد، والإسلام يحرّم التمييز العنصري.

وقد بيّن القرآن الكريم أنّ السبب في غضب الله تعالى على اليهود أفعالهم، من ذلك قوله تعالى: **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}** (القرة٦١)، وقوله: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ**

وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (المائدة٦٤).

وقد حوى الإنجيل من الألفاظ والعبارات التي تصف اليهود ما لو ذكرها مسلم لحوكم بتهمة معاداة السامية. وننقل هنا جملة من الأقوال مما ورد في العهد القديم في وصف اليهود ليتدبّر فيها كلّ عاقل ونزيه:

١ . (استمعي أيتها السماوات وأنصتي أيتها الأرض فإن الرب قد تكلم. إني ربيت بنين وكبَّرتهم لكنهم تمردوا عليَّ. عرف الثور مالكه والحمار علف صاحبه لكن إسرائيل لم يعرف وشعبي لم يفهم. ويل للأمة الخاطئة الشعب المثقل بالآثام، ذرية أشرار وبنين فاسدين. إنهم تركوا الرب واستهانوا بقدُّوس إسرائيل وارتدوا على أعقابهم.

علام تُضرَبون أيضاً إذا ازددتم تمرداً ؟ الرأس كله مريض والقلب كله سقيم. من أخمص القدم إلى الرأس لا صحة فيه بل جروح ورضوض وقروح مفتوحة لم تعالج ولم تعصب ولم تُلَيَّن بدهن) [أشعياء ١ : ١– ٦].

٢ . (كيف صارت المدينة الأمينة [القدس] زانية ؟ لقد كانت مملوءة عدلاً وفيها كان بيت الرب أما الآن فإنما فيها قَتَلة. فِضَّتك صارت خبثاً وشرابك مزج بماء .

رؤسائك عصاة وشركاء للسراقين ، كل يحب الرشوة ويسعى وراء الهدايا، لا ينصفون اليتيم، ودعوى الأرملة لا تبلغ إليهم.
فلذلك قال السيد رب القوات عزيز إسرائيل : لأثأرن من خصومي وأنتقمن من أعدائي. وأرد يدي عليك، وأحرق خبثك كما بالحرض وأنزع نفاياتك كلها) [أشعياء ١ : ٢١-٢٥].

٣ . (آثامكم فرقت بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم حجبت وجهه عنكم، فلا يسمع لأنّ أكفكم تلطخت بالدم وأصابعكم بالإثم.
ليس من مدع بالبر ولا محكم بالصدق، يتكلمون على الخواء وينطقون بالباطل، يحبلون الظلم ويلدون الإثم، ينقفون بيض الحيات وينسجون خيوط العنكبوت. وبيضهم من أكل منه يموت، وما كسر منه انشق عن أفعى.
خيوطهم لا تصير ثوباً ولا يكتسون، بأعمالهم إثم، وفعل العنف في أكفهم.
أرجلهم تسعى إلى الشر وتسارع إلى سفك الدم البريء، أفكارهم أفكار الإثم، وفي مسالكهم دمار وتحطيم.
لم يعرفوا طريق السلام ولا حق في سبيلهم، قد جعلوا دروبهم معوجة، كل من سلكها لا يعرف السلام.
لذلك ابتعد الحق عنا، ولم يدركنا البر، نترقب النور فإذا بالظلام ، والضياء فإذا بنا سائرون في الديجور.
نتحسس الحائط كالعميان، وكمن لا عيني له نتحسس، نعثر في الظهيرة كما في العتمة، ونحن بين الأصحاء كأننا أموات...

لأن معاصينا قد كثرت تجاهك، وخطايانا شاهدة علينا، لأن معاصينا معنا وآثامنا. قد عرفنا العصيان والكذب على الرب، والارتداد من وراء إلهنا، والنطق بالظلم والتمرد والحيل بكلام الكذب، والتمتمة به في القلب...
على حسب الأعمال هكذا يجزي، فالغضب بخصومه والانتقام لأعدائه ويجزي الجزر الانتقام) [أشعياء ٥٩ : ٢ – ١٨].

٤ . (يا ابن الإنسان: إني مرسلك إلى بني إسرائيل؛ إلى أناس متمردين قد تمردوا عليّ.
فقد عصوني هم وآباؤهم إلى هذا اليوم نفسه؛ فأرسلك إلى البنين الصلاب الوجوه، القساة القلوب، فلا تخف منهم، ولا تخف من كلامهم، لأنهم يكونون معك عليقاً وشوكاً، ويكون جلوسك بين العقارب. من كلامهم لا تخف، ومن وجوههم لا ترتعب، فإنهم بيت تمرد) [حزقيال ٢: ٣].

الجهاد في الإسلام

الجهاد في الإسلام هو "قتال الكافرين لإعلاء كلمة الله"، فليس هو بحرب مقدّسة كما يقول الغربيون عن سوء قصد وتضليل، وذلك لما في كلمة "الحرب المقدّسة" من ذكريات مريرة، ومعان سلبية مغروسة بأعماق الغربيين، تعود إلى القرون الوسطى أيّام سيطرة الكنيسة على الفرد، والدولة والمجتمع.

والحرب، ظاهرة طبيعية شهدتها كلّ المجتمعات، والدول، والأزمان. يقول بكيت دي جو فينيل:" إنّ الحرب تبدو وكأنها أمر عارض في نظر ذاك الذي يكتفي بتأمل الزمن الذي يعيش فيه، إنما بالنسبة للإنسان الذي يعيش متأملا مسار الأزمان جميعا فسيجدها النشاط الأساسي الذي تمارسه الدول". [١٤]

والأمر غير الطبيعي هو ما يفعله الغرب بقيادة أميركا من عقد تحالفات، ومحاولة جرّ العالم كلّه للدخول في الحرب، وهو أمر قد يسبب حربا عالمية ثالثة لا تتحملها البشرية التي عانت ويلات الأولى والثانية.

إنّ الغرب يهاجم الإسلام، لتضمّنه الجهاد الهجومي، حتّى كرّه البشر في الإسلام، وأصبح هذا الدين الحنيف السمح في نظر العالم صنو الإرهاب، والوحشية والبربرية. ولقد تجاهل العالم، أنّه في الوقت الذي تُهاجم فيه فكرة الجهاد في الإسلام تُطوّر أميركا أسلحة الدمار الشامل وتحتلّ أرض المسلمين،

---

[١٤] نقلا عن صدى الحداثة ص١٩٩ لرضوان جودت زيادة

وفي الوقت الذي يُهاجم فيه القرآن لاحتوائه آيات القتال ينشد الفرنسيس لامارسياز la *Marseillaise* يدعون فيها للقتال ويتمنون فيها سبع مرّات: أن يتدفق دم غير طاهر في ساحاتهم:

Aux armes citoyens !

Formez vos bataillons !

Marchons, marchons

Qu'un sang impur Abreuve nos sillons !

والحقيقة، أنّ الغرب يريد من المسلمين نزع السلاح، وتسليم البلاد والعباد له. فحتّى القتال من أجل تحرير الأرض يعتبره الغرب من المسلمين إرهابا. فقتال المسلمين الروس في الشيشان، إرهاب. وقتال المسلمين أميركا في أفغانستان، إرهاب. وقتال المسلمين الأمريكان والإنجليز في العراق، إرهاب. وقتال المسلمين اليهود الصهاينة في فلسطين، إرهاب. وقتال المسلمين الهندوس في كشمير، إرهاب.

فماذا بقي إذن للمسلمين من قتال لا يسمّى في عرف الغرب بالإرهاب. لم يبق إلاّ قتالهم لبعضهم بعضا!

إنّ الجهاد طريقة الإسلام في حمل الدعوة، مثلما الاستعمار الذي منه الاستعمار العسكري طريقة نشر الرأسمالية، أو بالأحرى فإنّ الاستعمار العسكري الترابي

هو طريقة الرأسمالية لنهب البشرية واستغلال ثرواتها، وهو ما تسير عليه أميركا الآن.

وقد شرع الإسلام القتال لإزالة الحواجز المادية التي تمنع الناس من رؤيته في الواقع مطبقا تنعم الخلق بعدالته. وأمّا قتال الغرب، فيعلل بالأمن القومي، والمصالح الحيوية، ومقاومة الإرهاب، وكلّ ذي عقل يعلم أنّه لحرب الإسلام، ولنفط المسلمين.

قال لورنس كورب، مساعد وزير الدفاع في عهد الرئيس السابق لأميركا ريجان، أثناء حرب الخليج في سنة ١٩٩١م: " لو كانت الكويت تنتج الجزر لما اكترثنا بالأمر". وقال هاليداي: "ماذا يريد الناس في الغرب؟ الإجابة بسيطة. إنهم يريدون المال. وهذا ما تمثله العولمة. إنها تعني تحويل العالم أجمع الى سوق هائلة ومعمل إنتاج صناعي".[١٥]

والإسلام حين شرع القتال ضبطه بضوابط كثيرة، فيها من السماحة والرحمة ما يبيّن حقيقة القصد منه الذي هو خير البشرية وليس استعمارها ونهب خيراتها. فعن سليمان ابن بريدة، عن أبيه. قال: **كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أمير على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا. ثم قال " اغزوا باسم الله. وفي سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين**

---

[١٥] ساعتان هزتا العالم ص٩٩

فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال). فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم، إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء. إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم..." (رواه مسلم).

فأوّل شروط القتال الدعوة إلى الإسلام بأسلوب بيّن يقيم الحجة والبرهان على من أريد قتالهم، فإن دخلوا في الإسلام بطلت الحرب، فهم من المسلمين لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وإن أبوا الإسلام ورضوا الجزية، كفّ عنهم وقبل منهم. والجزية هي قدر رمزي من المال يؤخذ مرة في السنة من الرجال البالغين، ولا يؤخذ من الأطفال، والنساء، والمعسرين، وهي مقابل حمايتهم ودخولهم في أمان الدولة الإسلامية.

أمّا إن أبوا إلاّ القتال، قوتلوا. علما، أنّ ليس القتال لأجل القتال ما يحرّك الجيوش الإسلامية، إنما من أجل أداء الرسالة السمحة التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور. لذلك، فإنّ الجيوش الإسلامية عبر تاريخها، لم تغتصب النساء كما فعل الصليبيون، والروس، والفرنسيس، والصرب، وحلفاء الأمريكان في أفغانستان، والأمريكان في العراق، ولم تقتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، والبهائم، ولم تحرق البلاد كما يفعل الغرب اليوم.

ولقد ضرب صلاح الدين الأيوبي، المسلم الكردي، مثلا عظيما في سماحة الإسلام وقوته وعزته سيسير على منواله جيش الخلافة القادمة بإذن الله، وهذا رغم ما فعله الصليبيون في بيت المقدس من قتل، واغتصاب، وحرق، وتدمير. وهذه شهادة بعض المستشرقين والمؤرخين من الغرب:

يقول استيفن سن:" إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل دون فدية".

ويروي أستانلي لين بول: "إن السلطان قد قضى يوماً من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية ".

ويقول المؤرخ الإنجليزي (مل): " ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين، فقوبلوا بكل ترحاب". ولقد خرج البطرك "ستانلي" بأمواله وذخائره الكثيرة دون أن يصرف منها شيئا في فداء الفقراء والمساكين، فقيل لصلاح الدين "لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين ؟" فقال : "لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به"، وفي ذلك يقول ستانلي لين بول: "قد وصل الأمر إلى أن سلطانا مسلما يلقي على راهب مسيحي درسا في معنى البر والإحسان".

إنّ هذه الروح السمحة، والأخلاق النبيلة، هي أخلاق الإسلام وآدابه في التعامل مع البشر في السلم والحرب. قال الله سبحانه وتعالى:{**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**} (البقرة١٩٠).

من يكره من ؟

بكلّ بساطة، وفي كلمتين، علّل الغرب، وخاصّة الأمريكان منهم، أحداث ٢٠٠١/٩/١١م بقولهم: " إنّهم يكرهوننا".
إنّ صنّاع القرار، وحكومة الظلّ، والقلّة المتنفّذة، والإعلام الكاذب في الغرب، يلعبون بمشاعر الشعب المنغمس في الرغبات المادية والملذات الدنيوية، وذلك بعبارات عاطفية، وكلمات منمّقة محبّبة إليه، كالحرّية والديمقراطية؛ إنّهم يفسرون له مجرى الأحداث الجسام التي يمرّ بها العالم بأكمله، بقولهم إنّ المسلمين يحسدوننا على حضارتنا، ونمط عيشنا، وحرّيتنا، وديمقراطيتنا.

لقد خفي عن هذا الشعب المسكين الذي صدّق الفرية أنّ المسلمين لا يحسدون الغرب على إلحاده، وصليبيته، وماديته، ونفعيته، وميكيافليته، وتفكّك الروابط الأسرية، وانتشار الجريمة المنظمة وغير المنظمة، وحرّية الشذوذ الجنسي، وديمقراطيته المزورة التي أوصلت بوش الصغير إلى الحكم.
يقول نعوم تشومسكي: "بأنّ العالم لا يكره أمريكا لأنها تدافع عن قيم الديمقراطية والحرية الفردية والرأسمالية، وإنما لأنها تعيق الديمقراطية والتنمية الاقتصادية في هذا العالم من خلال دعمها المستمر لأنظمة مستبدة بل وحتّى إرهابية."[١٦]

---

[١٦] نقلا عن صدى الحداثة ص١٤٥ لرضوان جودت زيادة

إنّ الحبّ والكره مبنيان على الأعمال والتصرّفات، فما هي هذه الأعمال التي تجعل المسلم يحبّ الغرب ويتعشّقه؟

هل يذكر الغرب ما فعله في القدس حين دخلها مستعمرا، ألم يذبّح الصليبيون المسلمين ونصارى المشرق واليهود حتّى سالت الدماء كالأنهار، "وتوزعت أوصال البشر في أنحاء المدينة، وشوهدت القطع من الرؤوس والأيادي والأرجل متفرقة".[١٧] ألم ينصب محاكم التفتيش والتعذيب لمسلمي الأندلس ويهودها؟ ألم يعذّب الفرنسيس أهالي الجزائر حتّى الموت؟ ألم يفن الرجل الأبيض الهنود الحمر في بلدهم أمريكا؟ ألم يحرق الأمريكان الفيتنام؟ ألم يدمّر الروس الشيشان؟ من اغتصب النساء وقتل الأطفال وباع أعضاءهم؟ ألم يتآمر الغرب مع الصرب في ذبح مسلمي البوسنة؟ حتى إنّ الكاتبة الأمريكية سوزان سونتاغ قالت متهمة أوروبا: "إنّ وزراء الثقافة في المجموعة الأوروبية يتسترون على أكبر جريمة قتل جماعي في تاريخ أوروبا تقع تحت سمع وبصر الجميع، إنّ أجهزة التلفزيون تنقل كلّ ما يحدث في سراييفو لحظة بلحظة ومع ذلك لم يتحرّك أحد لمنع هذه الجريمة التي تقع في قلب أوروبا".[١٨]

ألم يحتل الأمريكان أفغانستان من أجل نفط بحر قزوين؟ ألم يستعمر الأمريكان العراق من أجل نفطه؟ تقول ايه.ام.روزنثال : "إنّ أي أمريكي يعرف ألف باء السياسة يعلم تماما أنّ الولايات المتحدة لا تحارب من أجل الديمقراطية (ضدّ

---

[١٧] أنظر: أجندة جرائم فرنسا فيما وراء البحار، لجاك مورال

[١٨] نقلا عن صحيفة الحياة ١٤\١١\١٩٩٣م

العراق)، لأنّه ليست هناك ديمقراطية في العالم العربي. ولا تحارب من أجل الكويت..لا. لقد تحرّكت الولايات المتحدة نحو الحرب لمنع العراق من السيطرة على ثروة هي الوقود الأساسي للصناعة، وقد تعني الفرق بين الحياة الاقتصادية وبين الاندثار". [١٩]

إنّ التاريخ والواقع المعيش يشهدان على الغرب بأنّه يسعى، ولا زال يسعى، لاستغلال الشعوب، ونهب خيرات البلدان وسرقة الثروات من خلال الاستعمار بشكليه القديم أو الجديد. فمتى نهضت أمّة استعمرها الغرب، ومتى تقدّم بلد دخله الغرب؟ فهل أنهض الإنجليز الهند؟ أم هل أنهض الهولنديون ومن بعدهم الأمريكان اندونيسيا؟ ألا تكفي فضائح "أبو غريب" و"غوانتانمو" للدلالة على بربرية الغرب ووحشيته؟

أمّا الإسلام، فهدفه قناعة الشعوب برسالته، فهو يفتح البلدان لفتح القلوب والعقول لدين الله، فلا يسرق ثروات البشر وينهب خيرات البلاد، بل يبقيها لأهلها ويحميها لهم، ويسعى لإنهاضهم والتقدّم بهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. لذلك، نهض الإسلام بالأندلس وجزر إيطاليا في عصر ظلام أوروبا. يقول المستشرق أستانلي لين بول في كتابه (حكم المسلمين في أسبانيا): "لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب". ويقول ديورانت في (قصة الحضارة): "وبلغت بلاد آسية الغربية

---

[١٩] الهيرالد تريبون ٢٧ \ ٠٨ \ ١٩٩٠م

تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعي والتجاري لم تصل إليها بلاد أوروبا قبل القرن السادس عشر". فما قام به المسلمون كما تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة: " لهو عمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ العالم".

إنّ الغرب هو الذي يكره الإسلام والمسلمين، وهو الذي يعاديهم ويحتلّ أرضهم، وهو الذي كما قيل في الأمثال: يضرب ويبكي، ويسبق ويشكي. إنّه ينادي للحوار ولكنه يجهزّ للحرب، ويدعو للتسامح واحترام الحضارات ولكنه يعمل على القضاء على الإسلام، ويقول إنّه يحبّنا ولكنه يخفي الحقد بقلبه.

تقول كارين آرمسترونغ (Armstrong) في كتابها (مُحمَّد: سيرة نبي): "لدينا في الغرب تاريخ طويل من الحقد والعداء تجاه الإسلام، ولكن هذه الكراهية ما زالت تزدهر وتكبر على جانبي المحيط الأطلسي، ولا شيء يمنع الناس من مهاجمة هذا الدين حتى وإن كانوا لا يعلمون عنه شيئا".

وفي تصريح لوكالة فرانس براس بعيد أحداث ١١/٩/٢٠٠١م قال البروفسور باتريس برودور من كنيكتيكات كوليدج: "إنّ الموقف المتشكك الذي يبديه المجتمع الأميركي تجاه المسلمين من أصل شرق أوسطي أو جنوب آسيوي متأصّل بصورة أعمق وأكثر شمولية من مجرد المواقف النمطية". وأوضح للوكالة: " أنّ الأميركيين طوروا مفهوما لديانتهم هو يهودي مسيحي لكنه ليس يهوديا مسيحيا مسلما بعد... وأنّ الثقافة الشعبية الأميركية ما زالت متأثرة بروح الحروب الصليبية التي تجعلهم يرون في الدين الإسلامي مصدر تهديد...".

ويقول الكاتب والمحلل السياسي الأيرلندي فريد هاليداي "..وأن يكون هناك شيء اسمه «معاداة الإسلام» فهذا صحيح بلا أدنى ريب. وليس من الصعب العثور على أمثلة حديثة العهد في الصحافة البريطانية. ويمكن أن نرى اتجاهات مماثلة في أماكن أخرى: في الدنمارك جعل حزب الشعب مثل هذا العداء بندا مركزيا في برنامجه. وفي عام ١٩٩٨ أنتجت هوليوود فيلم «الحصار»، الذي يركّز على الإرهاب الإسلامي على نقيض لافت... ولعل المثال الأسطع على معاداة المسلمين اليوم نجده في الهند. فان حزب جاناتا خاض الحملة من أجل إعادة انتخابه في عام ١٩٩٧ على أساس ثلاث قضايا معادية للمسلمين: إعادة بناء معبد أيوديا وإلغاء التشريعات القانونية الخاصة بالمسلمين وإنهاء الوضع الخاص لمقاطعة كشمير. وتتبع قضايا أخرى . إعادة تسمية بومباي كناية بآلهة هندية وإعادة كتابة كتب التاريخ . منطقا مماثلا...".[٢٠]

ويقول المستشرق الشهير غوستاف لوبون: "تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام بتعاقب القرون، وصارت جزءا من مزاجنا، وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصّل حقد اليهود على النصارى الخفيّ أحيانا والعميق دائما".[٢١] ويؤكّد ليوبولد فايس هذا بقوله: "إن روح الحروب الصليبية ما تزال تتسكع فوق أوربا، ولا تزال تقف من العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال".[٢٢]

---

[٢٠] ساعتان هزتا العالم ص٤١

[٢١] عن كتابه "حضارة العرب" ص٢١

[٢٢] الإسلام على مفترق الطرق ص٦٤

ويقول المستشرق الهولندي فان كونجزفالد: "من أراد في الغرب الدخول في نقاش حول الإسلام، فإنه سيواجه عقدة مستمرّة من المفاهيم التي قد سبق وتشكّلت في أغلبها منذ الأجيال السابقة".[٢٣]

ويقول الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية نيكسون: "يميل كثير من الأمريكيين إلى تصور المسلمين على أنهم نمط واحد من الناس غير المتمدنين، غير النظيفين، المتوحشين وغير العقلانيين، وعلى الغالب لا يلفت انتباهنا فيهم سوى أن بعض زعمائهم لهم الحظ السعيد في أنهم يحكمون أقاليم تحتوي في باطن أرضها على ثلثي الاحتياطات المؤكدة من النفط في العالم. ليس هنالك من شعب، حتى ولا الصين الشعبية، له صورة سلبية في ضمير الأمريكيين بالقدر الذي للعالم الإسلامي".[٢٤]

ويقول الصحفي آلان روسكيو RUSCIO: "من أين يأتي هذا الحقد المتأصل الذي يكنّه جزء لا يستهان به من الفرنسيين تجاه المغاربة المقيمين في فرنسا أو بشكل عام، تجاه المسلمين؟.. قد يفاجأ الجمهور الفرنسي عام ٢٠٠٤م كثيرا إذا اجبنا بأن العنصرية المضادة للعرب تعود إلى القرون الوسطى، إلى بداية الغزو المضاد Reconquista إلى الحملات الصليبية أو ربما إلى ما قبل هذا التاريخ. أليس من اللافت أن تكون بعض العناصر المكونة لثقافة الفرنسيين التاريخية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمجابهات مع العالم العربي الإسلامي؟ بالتسلسل الزمني :معركة

---

[٢٣] حديث عن الإسلام والعصر الحديث ص٩

[٢٤] أمريكا والفرصة التاريخية ص١٨٧

بواتييه، معركة رونسفو، الحملات الصليبية ..".[٢٥]

فمن يكره من؟ وصدق الدكتور مراد هوفمان القائل: إنّ" الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل حتى مع عبدة الشيطان، ولكنه لا يُظهر أيّ تسامح مع المسلمين، فكل شيء مسموح به إلا أن تكون مسلما!".[٢٦]

---

[٢٥] في جذور العنصرية، Le Monde Diplomatique شباط/فبراير ٢٠٠٤م.

[٢٦] الطريق إلى مكة ص ١٤٩

أكذوبة التسامح الغربي

لا يجد المرء كبير عناء في إثبات الفشل الغربي في التوفيق بين التنظير للتسامح وتطبيقه على أرض الواقع، فالهوة بينهما عميقة والبون شاسع مما يجعل أمر إدراك الفصل هينا ميسورا.

تقول النظرية إنّ التسامح "موقف يتجلى في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلّق باختلافات السلوك والرأي دون الموافقة عليها". وتقول: "باحترام وتقدير وقبول التنوع الثري لثقافات عالمنا، ومختلف أنماطنا التعبيرية، وطرق تحقيق كينونتنا الإنسانية". مما يعني أن نظرية التسامح تقرّ بوجود الاختلاف بين البشر في ثقافاتهم وحضاراتهم، وتقبل التنوع بين أنماط العيش المختلفة والسلوكيات المتباينة بين البشر لتباين وجهات نظرهم عن الحياة. ولكن الممارسة العملية تهدم هذا التصور بكلّ مدلولاته ومعانيه وأسسه التي قام عليها.

فالدعوة إلى الاندماج في المجتمع الغربي التي تفيد الذوبان في ثقافة المجتمع وحضارته، والتي تفيد تخلي المسلم عن هويته أي عن عقيدته، وثقافته، وحضارته، وقيمه، على النقيض تماما من نظرية التسامح التي نظّر لها الغرب بمفكريه ومؤسساته المحلية والعالمية.

والحملة المتواصلة على الإسلام في بلاد الغرب أكبر شاهد على هذا التناقض بين الفكر والممارسة. وما يرى من تشويه لصورة الإسلام في وسائل الإعلام، ومن تصريحات يومية تطعن فيه وفي أهله، لا يدلّ مطلقا على احترام وتقدير لبقية الثقافات المغايرة لثقافة الغرب. وما حصل مؤخرا في الدانمرك من إهانة لنبي

الرحمة عليه الصلاة والسلام يعتبر من أقوى الأدلّة وأوضحها وأوقحها، إذ بيّن بالبرهان القاطع عدم احترام الغرب لأسس التسامح الذي بشّر به ودعا إليه. ويعترف عالم الاجتماع الأمريكي نيكولاس هوفمان بهذا فيقول: "لا توجد ديانة أو قومية أو ثقافة كثقافة العرب والمسلمين تتعرض في الولايات المتحدة لمثل هذا التشويه الفظيع".[٢٧] وتقول آرمسترونغ: "إن الإعلام الغربي يثير انطباعات بأن التشدّد والتزمت الديني الذي يتسم بالعنف ويسمى (التّعصب) هو ظاهرة إسلامية بحتة".[٢٨]

وتعتبر مشكلة "الحجاب" التي أثيرت بقوة مؤخرا في أوروبا خرقا فاضحا لنظرية تقوم على حرية التدين، وتنصّ على أنّ التسامح "يعني أن نقبل بأن البشر من طبيعتها أن تختلف في المظهر، والحالة، والكلام، والسلوك والقيم".

والسعي إلى دمقرطة العالم وفرض المبدأ الرأسمالي على كلّ دوله، والنظام الغربي على كلّ شعوبه، أو بتعبير البروفسور البريطاني دامبو Micah Dembo في مقال له بصحيفة The Independent: "إنّ الأسس الثقافية والفكرية للإرهاب في المجتمعات الإسلامية لا تدمر إلاّ بتغريب تلك المجتمعات"[٢٩]، مناقضة صريحة لنظرية التسامح. فهي التوتاليتارية (الكليانية) بعينها التي أوجبت نظرية التسامح

---

[٢٧] الإسلام فوبيا، ت. س. إليوت، ص٨٥

[٢٨] عن إمبراطورية الشر الجديدة، لعبد الحي زلوم، ص٣٨٤

[٢٩] نقلا عن: Islam in the Western Media, By Bashy Quraishi, THE MULTICULTURAL SKYSCRAPER NEWSLETTER, Vol. ١ No. ٣. October ٢٠٠١.

الغربي رفضها. ذلك، أنّ الكليانية Totalitarianism هي "أحد أشكال الحكم المبني على إخضاع الفرد للدولة، وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الأمة وطاقاتها المنتجة، وذلك على أساس افتراضات أيديولوجية تحكمية معينة تبقي الزعامة تطبيقها وتعلنها في جو من الإجماع المفروض بالإكراه على السكان كافة".[٣٠]

وما تقوم به أمريكا وإنجلترا في العراق، وما يراد بالعالم الإسلامي ككل من حمله على تطبيق الديمقراطية، وتغيير مناهج تعليمه، ليس إلا كليانية، وهو من باب فرض أيديولوجية معينة على الشعوب من أجل التحكم في طاقاتها ومواردها.

ولا ننسى كذلك التصريحات الشهيرة للمستشار الألماني شرودر عقب أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م، حيث اعتبر الهجوم على أمريكا هجوما على العالم المتحضر، ولبرلسكوني الإيطالي عقب الأحداث نفسها حيث قال بكل عنجهية: "إن الحضارة الغربية أعلى وأفضل من الحضارة الإسلامية". فقد نسي شرودر أنّ القول بأن العالم الغربي متحضر مرفوض لأنه يفيد عدم تحضّر الغير، وهو ما يدلّ على استعلاء على بقية الحضارات وانتقاص من قدرها، وهي فكرة مناقضة لنظرية التسامح الغربية، كما نسي برلسكوني أن القول بعلو الحضارة الغربية وأفضليتها يناقض نظرية التسامح التي تنصّ على التسوية بين الحضارات وعدم وجود أفضلية بينها.

هذا غيض من فيض، والأمثلة على القطيعة بين نظرية التسامح عند الغرب وممارستها، سواء من التاريخ القديم أو الحديث، كثيرة جدّا يصعب حصرها.

---

[٣٠] معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د زكي بدوي، ص٤٢٧.

والحاصل، فقد ظهر أنّ نظريات التسامح والنسبية (relativism) والتعدُّدية (pluralism) التي يتبجّح بها الغرب ويدعو المسلمين إلى تبنيها، ليست إلاّ نظريات مثالية لا واقع لها، فهي عبارات حبر على ورق يؤولها كما يشاء، ويلوي عنقها كما يشاء، ويغيّرها متى يشاء، إنّها زمزمة فلاسفة لا وجود لفكرهم، ولا أثر لآرائهم على أرض الواقع الغربي.

إنّ قول فولتير : "حتى ولو كنت أخالفك الرأي فإنني مستعد للنضال معك حتى الأخير لكي تقول ما تريد"، أو قول باستور "أيا تكن جنسيتك أو لون جلدك قل لي أين تتألم كي أعالجك"، أقوال سحرت عشّاق الحضارة الغربية لعقود من الزمن، لكنّها لا معنى لها عند الغرب ولا واقع.

خاتمة

القرآن أقوى من الغرب

قامت فرنسا، أيام احتلالها للجزائر، بتجربة عملية من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر، فقامت "بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات، أدخلتهنّ الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، وألبستهنّ الثياب الفرنسية، ولقنتهنّ الثقافة الفرنسية، وعلمتهنّ اللغة الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تماماً.
وبعد أحد عشر عاماً من الجهود، هيأت لهنّ حفلة تخرج رائعة، دعي إليها الوزراء، والمفكرون، والصحفيون...ولما ابتدأت الحفلة، فوجيء الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهنّ الإسلامي الجزائري ...
فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً!؟ أجاب لاكوست، وزير المستعمرات الفرنسى: "وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟!."[٣١]
إننا اليوم نقول: القرآن أقوى من الغرب.
فستذهب وتزول هذه الدعاوى الكاذبة التي تصف الإسلام بالتعصّب وعدم السماحة، وسينتصر الإسلام، وتقوم دولة الخلافة التي ستملأ الأرض عدلا، كما ملأت ظلما وجورا. وساعتها، لن نقول للغربيين الوافدين على دار الإسلام،

---

[٣١] نقلا عن كتاب: (قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله)، للأستاذ جلال العالم، ص٣٥

المريدين للعيش مع المسلمين في ظلّ دولة الخلافة، ورحمة نظامها وسماحة دينها، "لا إسلام مع غير المسلمين" قياسا على مقولة الغرب "لا ديمقراطية مع غير الديمقراطيين"، بل سنقول لهم: الإسلام مع المسلمين ومع غيرهم، فانطلقوا في دارنا، تحت حمايتنا، ولكم ما لنا وعليكم ما علينا.

قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (٨) **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** (٩) **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** (١٠)} (المائدة).



